مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (4)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (4) 2011

العولمة والوعي القومي العربي

الدكتور عبد الله سيف الدين*

(تاريخ الإيداع 20 / 4 / 2011. قبل للنشر في 8 / 9 / 2011)

□ ملخّص □

إن العولمة من خلال بعدها الاقتصادي(الرئيسي وليس الوحيد) المتجلي بانتقال الفعاليات الاقتصادية للدول المتقدمة من المستوى المحلي إلى المستوى العالمي تسويقاً وإنتاجاً، تشكل تحدياً خطراً للدول والمجتمعات كافة. وهذا التحدي يأخذ طابعاً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً بالإضافة للاقتصادي. مما يجعل مواجهة الآثار السلبية للعولمة حتمية، ويجعل استثمار إيجابياتها ضرورة ملحة محلياً، لضمان وجود حضاري فاعل لكل أمة أو مجتمع. وهذا الأمر بمنحييه الدفاعي والاستثماري يتطلب توفر وعي حقيقي للظاهرة وتجلياتها من جهة، وللإمكانيات والمستلزمات المستقبلية للذات الراغبة بالفعل، من جهة أخرى. وذلك بالنسبة لحالة الأمة العربية الراهنة، يتطلب التأكيد على ضرورة بناء وعي قومي عربي حقيقي. يؤسس نظرياً لفعلٍ عربي مشترك وتكاملي، يضمن من مختلف النواحي، لهذه الأمة العريقة وجوداً فاعلاً في ظل العولمة. وجوداً يتجاوز دور المنفعل(المستهلك) إلى دور الفاعل(المنتج). وهذا ما سعى البحث، من خلال وجهة نظر كاتبه المتواضعة، إلى التدليل على أهميته وبيان إمكانيته، ومحاولة تصور آلية تنفيذه أو مجرد توفيره.

الكلمات المفتاحية: العولمة، الوعي القومي العربي، الهوية الثقافية، الفاعلية، العمل العربي المشترك، التحديات، المغريات، الأمن القومي.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (4)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (4) 2011

* مدرس في قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين.

Globalization and Arab National Awareness

Dr. Abdullah Sayf Aldeen*

(Received 20 / 4 / 2011. Accepted 8 / 9 / 2011)

□ ABSTRACT □

Globalization in its economical context embodied in transferring the local economic activities of the developed countries into the international level poses a serious challenge to countries and societies alike. This kind of challenge takes a social, political, cultural and economic dimension. This challenge also makes facing the negative effects of globalization essential on the one hand, and makes locally exploiting its positive aspects urgent, on the other, guaranteeing the civilian existence of each society. This research highlights the importance of national awareness in establishing an integral Arab action.

Keywords: Globalization, Arab National Awareness, cultural identity, National Security

تمهيد:

* **Assistant Professor, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

التجمع أمر ضروري ومشروع، فلا وجود يذكر لفردٍ لا تحضنه جماعة، ولا جماعةٍ لا تحرك فاعليتها مبادئ وقيم واعتقادات راسخة في كيان أفرادها؛ أو مؤدلجة على نحوٍ ما في إطار وعيها الثقافي قومياً.

ذاك –على ما يبدو– هو درس التاريخ الأوضح في فهم آلية التغير والتعبير؛ وتتبع أهمية التغيير من كونه احتمالي النتائج، فقد يصبح تقدماً عندما يكون نحو الأحسن، وهو رقيّ وحضارة عندما يكون من الحسن إلى الأحسن؛ وبالصورة ذاتها يمكن أن يصبح تخلفاً أو تراجعاً عندما يكون على عكس ذلك...!

أما التعبير فهو النمط الثقافي والسلوك الحضاري الذي يعكس مستوى فاعليَّة الجماعة في ذلك التغيير وقيمته ومظاهره. إنه الروح التي تتجلى من خلالها خصائص الجماعة أو الأمة، وتترسخ شخصيتها المتميزة حضارياً عن غيرها. وبشكلٍ يضمن لها الاستمرارية الحضارية عبر منعطفات التاريخ، لكن من خلال مساهماتها الفريدة إنسانياً. أي من خلال هويتها الثقافية ووعيها القومي، والمحتوى الإنساني المميِّز لتلك الهوية والمساهم فعلاً في ترسيخ قيم مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان... وغيرها؛ والمعبَّر عنه في مجالات مثل الأدب والفلسفة والعلم والفن... وغيره؛ والمطبَّق في ميادين مثل الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية... وغيرها.

فما هو التغيير الذي تقودنا إليه العولمة؟ وما هو التعبير الذي يمكن أن يعكس وعينا القومي العربي في ظلّها؟!

أهمية البحث وأهدافه:

كان غرضنا من التمهيد أن نوضح أن المطلوب من التغيير والتعبير على السواء هو الأحسن، والأحسن ذاك يفترض على صعيد المجتمع أن يشمل كل أو معظم المجالات. لكن في ظل العولمة لا يبدو الأمر كذلك ولعدة أسباب، سنعمد إلى مناقشتها تباعاً بعد تحديد المعنى الإجرائي للعولمة والذي نرغب أن يستند بحثنا إليه. ثم محاولة عرض مبادئ الوعي القومي العربي الأساسية – بنظرنا – لرسم ملامحه كما يجب أن يكون. وبعدها نناقش التحديات التي يمكن للعولمة أن تفرضها على ذلك الوعي، ومدى إمكانية انحرافه عن تلك المبادئ، مما قد يشكل خطراً حقيقياً عليه بنيةً وفاعليةً. وأخيراً نجتهد في توصيف مقترحات نزعم أنها ممكنة وقادرة من حيث المبدأ، على مواجهة زخم العولمة أو على الأقل الحد من تأثيرها السلبي من جهة أولى. وإمكانية التوظيف الإيجابي لمعطيات العولمة في تعزيز بنية وفاعلية الوعي القومي العربي من جهة ثانية. أي في تعميم أو نشر حاجة ذلك الوعي للتعزيز، وحاجتنا – نحن المعنيين به – المعاصرة والجادة للعمل العربي المشترك والمنبثق فعلاً عن وعي قومي حقيقي، ليس فقط لمصالحنا، بل لوجودنا ذاته وحقيقة أو شكل ذلك الوجود، على الساحة الدولية. تلك هي محاور البحث الأساسية وخطته وأهدافه.

منهجية البحث:

أما منهجية البحث، فكانت تحليلية استنتاجية غالباً واستقرائية تركيبية أحياناً، وقد اعتمدنا في إنجازه على منهجين فلسفيين هما: الظاهراتي (الفنومنولوجي) الذي حللنا بواسطته ظاهرة العولمة وبعض تجلياتها، والتحليلي النقدي للنصوص وبعض دلالاتها الفلسفية، أو أوجه قراءتها الممكنة سياسياً واجتماعياً وربما إيدولوجياً. حيث استخدم كلّ منهجٍ في حينه وحسب الحاجة إليه، من وجهة نظرنا.

وقد تم إجراء هذا البحث في جامعة تشرين ولصالحها.

العولمة. تعريف الظاهرة وأبعادها وتجلياتها:

العولمة لغة من العالمية وبالتالي من العَالَم. و"العَالَمُ الخلق وجمعه العوالِم بكسر اللام والعالَمون أصنافُ الخلقِ"[1]. أما الفرق بين قولنا عالمية وعولمة فعائدٌ – حسب تصورنا – إلى صيغة أو آلية نشر الفاعلية التي ينطوي عليها مصطلح العولمة. إذ أن العالمية ما هي: إلاَّ تجاوز أثر فاعلية أو ظاهرة ما المستوى المحلي والقومي إلى المستوى العالمي، وذلك نظراً لما تتضمنه هذه الفاعلية من خصائص ذاتية تؤهلها لذلك. أما العولمة فهي عملية التجاوز ذاتها لكن عندما تقوم بها جهة معينة تحقيقاً لمصالحها هي، واستغلالاً للظروف العالمية المواتية؛ وبغض النظر عن مصالح الآخرين وعن الأهلية الذاتية للظاهرة، أو حتى الصلاحية الظرفية لعولمة تلك الظاهرة أصلاً.

بهذا المعنى نفهم تعريف (مالكو راترز) للعولمة بأنها: "**كل المستجدات والتطورات التي تسعى بقصد أو من دون قصد إلى دمج سكان العالم في مجتمع واحد**"[2] وكذلك تعريف (فانتووني جيدنز) الذي ذهب بدوره إلى أنها "**مرحلة جديدة من مراحل بروز وتطور الحداثة، تتكاثف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي، حيث يحدث تلاحم غير قابل للفصل بين الداخل والخارج، ويتم فيها ربط المحلي والعالمي بروابط اقتصادية وثقافية وسياسية وإنسانية**"[3].

ومما يدعم هذا التصور هو أن العولمة ومنذ ظهورها – في الربع الأخير من القرن العشرين – قد ارتبطت أولاً بالجانب الاقتصادي وبفاعلية رأس المال التجاري ومن ثم الصناعي،[4] الذي نشطت حركته عالمياً وبصيغٍ عدة، لعل أبرزها هو الاستثمارات العابرة للقارات والمتجاوزة للحدود الجغرافية والقومية لغالبية الدول المتقدمة، التي كانت –ولفترة غير بعيدة– هي الحاضن الأساسي والمحتكر لذلك الاستثمار ورأس ماله. الأمر الذي ولد حاجة ملحة وميلاً دولياً من قبل الجميع تقريباً (بالأخص الدول النامية) لخلق مناخٍ محلي مناسب يغري أصحاب الفعاليات الاقتصادية الأبرز عالمياً، ويناسب شروط استثماراتهم على كافة الأصعدة. وهو ما فرض نوعاً من المرونة المحلية وصلت أحياناً إلى درجة كبيرة من السلبية أو الانفعالية الصرفة. التي ربما تجاوزت شكل التبعية الاقتصادية، نحو أشكالٍ عدة من الاستجابات غير الموفَّقة والمرتهنة مصيرياً لشروط الأقوى من قبل الأضعف في هذه المعادلة التجارية الصرفة. تلك المرونة التي لم تخص جانب الاقتصاد القومي، ولن تخصه وحده، بل تعدّته فعلاً باتجاه الجوانب الاجتماعية والسياسية والثقافية... وغيرها. مما شكل خطراً من نوعٍ جديد على استقلالية ذلك الأضعف وثوابت وعيه القومي وحتى سيادته على تراب وطنه. فتداعت لذلك مختلف الفعاليات الوطنية الثقافية منها خاصة، لدق ناقوس الخطر. وذلك من خلال دراسة ظاهرة العولمة وصياغة فهم موضوعي لمختلف آثارها، سلباً وإيجاباً، وبما يمكّن الذات من مشاركة الآخر، أي إمكانية ممارسة الفعل الحقيقي، بدل من مجرد الانفعال. فعقدت المؤتمرات والندوات وكثرت المؤلفات حولها، وعجّت الساحة الثقافية عالمياً بمختلف أنواع الخطابات وأشكالها من فلسفة وأدب وسياسة واقتصاد واجتماع... وحتى فنون؛ كلها تحاول رصد مظاهر انتشار العولمة وآثارها. وقد توزعت تلك الساحة جملة من المواقف تراوحت بدورها بين توصيفٍ يختص بالتمجيد وآخر بالتهويل، وبين تشخيص ينطلق حيناً من نقدٍ موضوعي وآخر متجاوز للموضوعية

[1] مختار الصحاح، باب العين، من عَلِمَ.

[2] عبد الله، عبد الخالق، (العولمة: جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها)، مجلة عالم الفكر، مجلد 28، العدد 2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999، ص 53.

[3] نفس المرجع السابق، ص 53.

[4] انظر: غليون، برهان وأمين، سمير، ثقافة العَولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 2000، ص 11.

لدرجة الذم؛ ومن تأييد متدرجٍ قد يصل إلى مرحلة التسليم بحتمية التحول العولمي أو ضرورته، على مختلف الأصعدة دونما قيدٍ أو شرط؛ نظراً لما يعتقده المؤيدون من انطواء العولمة على خيريّةٍ شبه مطلقة.

ولم يكن نصيب الخطاب العربي المعاصر من السجال الفكري حول ظاهرة العولمة بالقليل؛ فقد جذب الجدل حول الظاهرة وتجلياتها – عالمياً وعربياً – غالبية رجالات الفكر والأدب عندنا، من ليبراليين وأصوليين وماديين وقوميين.. وغيرهم. وقد حَمَلَ كل مفكر منهم وحَمَّلَ العولمة ما يناسب منطلقاته وتوجهاته.. وأحياناً أوهامه وأحلامه.

ولبيان ذلك نعرض بعض المواقف المتناقضة منها عربياً، علّنا نقف على بعض ملامحها. فقد وصفها (حسن حنفي) ناقداً للعيوب ومحذراً من المخاطر والتحديات بقوله إنها: "غطاء نظري جديد لأحد أشكال الهيمنة القديمة..."[5] ويحاول نقد وسائلها ومظاهرها وأهدافها كسياسة استعمارية جديدة. فهو يؤكد أيضاً أنه: "وبعد انكسار[انحسار] حركات التحرر الوطني في الربع الأخير منه [القرن العشرين] والتميع في التحول من الثورة إلى الدولة، عاد الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي والاجتماعي من جديد في صورة العولمة بالاقتصاد الحر، واتفاقية الجات، والمنافسة والربح، والعالم قرية واحدة، والتبعية السياسية وتجاوز الدولة القومية، ونشر القيم الاستهلاكية مع الجنس والعنف والجريمة المنظمة"[6].

وإن ركائزها بنظره هي "مجموعة من الأساطير والأوهام أقرب إلى الدعاية منها إلى الحقائق، وإلى الإعلام منها إلى البحث العلمي الرصين"[7]. وكذلك يرى أنه "وباسم العولمة تمحى الإرادة الوطنية المستقلة للدول والشعوب... وعلى هذا ليست وظيفة الدولة حماية الاقتصاد الوطني، بل تشجيع الاستثمار الأجنبي وتهيئة الخدمات اللازمة..."[8]. ثم يصل أخيراً إلى قوله: "العولمة تعبير عن مركزية دفينة في الوعي الأوروبي تقوم على عنصرية عرقية، وعلى رغبة في الهيمنة والسيطرة"[9].

وبمقابل هذا النموذج للخطاب الفكري _حول العولمة_ الناقم على مُصدّريها ومُروّجيها معاً، نجد نموذجاً آخر ناقداً له، حاول البرهنة على حتميتها وروّجها بحماسٍ ملحوظ. نأخذ مثالاً عليه قراءة (صادق جلال العظم)، ونبدأ عنده من تعريفه المقترح للظاهرة، والذي وصل إليه بعد شروح وتوضيحات وتحليلات طويلة، ليقول فيه: "العولمة هي حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء، في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ"[10]. ثم يعرج على تعريف آخر موجز يؤكد فيه، أنه و"باختصار، العولمة هي تسليعُ كل شيء، بصورة أو بأخرى وفي كل مكان ... إنها أممية رأس المال على الأصعدة كلها وعلى المستويات كافة، السطحية والعميقة"[11].ويستطرد في توصيفها مقترحاً استبدال مصطلح العولمة بفكرة "الإمبريالية العليا أو السوبر – إمبريالية"[12] التي كان قد طرحها (كارل كاو تسكي) سابقاً عندما توقع تجمع إمبرياليات العالم في اتحاد يوفق بين مصالحها الاقتصادية ويلغي الصراع والحروب بينها، وصولاً إلى "طور الاستغلال المشترك للعالم من جانب الرأسمال المالي

[5] حنفي، حسن والعظم، صادق، ما العولمة؟ دار الفكر، دمشق، ط2، 2000، ص 15.

[6] المصدر نفسه، ص 18.

[7] المرجع السابق، ص 22.

[8] المرجع السابق، ص 25.

[9] المرجع السابق، ص 45.

[10] المرجع السابق، ص 136.

[11] المرجع السابق، ص 136–137.

[12] المرجع السابق، ص 139.

المتّحد دولياً"[13]. معلناً أن ذلك الحلف الإمبريالي هو العولمة بذاتها وهو أساسها ومنطلقها[14]. ويتابع (العظم) حديثه الجاد عن العولمة محاولاً تفنيد القول في آثارها المتوقعة على المركز والأطراف كلٍّ على حِدا. مؤكداً أن العولمة بالنسبة للمركز تعني محاولة الاستثمار المباشر الأجنبي في مجتمعات الأطراف والإنتاج المباشر في تلك المجتمعات. مما يعني تدويل الإنتاج وعولمته بواسطة الشركات العملاقة العابرة للقارات والجنسيات، كونها اللاعب الرئيسي والأهم في الاقتصاد العالمي اليوم، حيث تكتسب لنفسها شرعية دولية يفرضها حجمها الاقتصادي فقط. الأمر الذي يعني تفجير أزمات متعددة في ذلك المركز نفسه، تبدأ من فقدان هذه الشركات لهويتها القومية والوطنية على حدٍ سواء وتنتهي بزيادة نسبة البطالة في الدول المتقدمة وانعكاس ذلك على أوضاع الطبقة العاملة، وتراجع قوة نقاباتها في الحفاظ على حقوقها وامتيازاتها. وانخفاض مستوى الدخل القومي لتلك الدول والحد من سلطة حكوماتها الوطنية على تلك الشركات العملاقة وظهور ما يسمى "النخب العولمية أو نخب الخبرة.."[15]

من جهة أخرى وعلى عكس ما يشاع، يؤكد الدكتور العظم أن "العولمة ليست إفرازاً من إفرازات ثورة المعلوماتية والاتصالات والإعلام، بل إن ثورة المعلومات والاتصالات والإعلام شرط ضروري ولكن غير كافٍ لتحقيق العولمة وتقدمها وتسارعها، والثورات المذكورة كلها موضوعة الآن في خدمة العولمة"[16]. وكذلك فإن توحيد مواصفات السلع المنتجة عالمياً هو الذي يوحد طرق الاستهلاك ويقرب الأذواق ويسهم واقعياً في إنشاء معارض إنتاجية وأسواق مشتركة إقليمية ودولية ذات خصائص ومصالح متشابهة لحدٍ كبير.

وفي استعراضه لمخاطر العولمة على الأطراف وهو ما يعنينا أكثر من غيره، ويؤكد (العظم) أن: "نظام العولمة لن يسمح بحدوث تنمية حقيقية وبمعالجة جديّة لمعطيات التخلف المعروفة إلا ضمن حدود معينة وفي بلدان محددة"[17]. إذاً إن العولمة في الأطراف سوف تلغي كل أشكال الإنتاج غير الرأسمالية الموجودة في دول المحيط لصالح الشكل الرأسمالي وشروطه السائدة في المركز. ومن ثم تحول كل المنتجين المباشرين والحرفيين في التشكيلات الاقتصادية الطرفية إلى عمالة مأجورة، فتوسع بذلك دائرة البطالة فيها أيضاً، وبجميع أشكالها وتعمق ما يعرف بالتخلّع الاقتصادي* محولة إياه من دلالة على تخلف اقتصادي في البلدان النامية إلى فضيلة اقتصادية. أضف إلى ذلك ميل الأطراف أو قابليتها لاستقبال بعض الصناعات المحددة دون غيرها وخصوصاً تلك الأكثر تلويثاً للبيئة، وذلك نظراً لصرامة قوانين حماية البيئة في دول المركز... وغيرها[18].

ومن المفكرين العرب المعاصرين من يصف العولمة بالكوكبية التي تقوم أساساً على تشابك واندماج لنواحي الثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة والعلوم... وغيرها. دون الالتفات إلى حدود أو انتماءات لدولٍ أو أوطانٍ معينة

[13] المرجع السابق، ص 141.

[14] انظر: المرجع السابق، ص 148.

[15] انظر: المرجع السابق، ص 160–165.

[16] المرجع السابق، ص 166.

[17] المرجع السابق، ص 178.

* التخلع الاقتصادي مصطلح يشير إلى عدم الترابط بين المنتجات الاقتصادية الوطنية في بلدٍ ما، أشبه بالتفكك بدل التكامل.

[18] انظر المرجع السابق، ص 183–185.

وذلك تجسده الشركات متعددة الجنسيات وثورة الاتصالات والمعلومات والتقنية والإعلام وما شابه فهي "مرحلة ما بعد الإمبريالية" من مراحل تطور الرأسمالية المعاصرة والمهيمنة عالمياً[19].

وهناك أيضاً من يعادل بين الأمركة والعولمة ولا يجد في الظاهرة إلاّ نوعاً جديداً من محاولة فرض إرادة الهيمنة الأمريكية على دول العالم، وخصوصاً النامية منها. وإن هي إلاّ تأكيد لترسيخ مبدأ سيادة القطب الواحد عالمياً بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. فقد اختصر (عبد الرزاق عيد) هذا الموقف بمعادلة تقريرية مختزلة بقوله: "**إنها الرأسمال الأمريكي + العسكرية الأمريكية = بلطجة من طراز تقني رفيع،..**"[20] ثم يتابع مقولاته المتشائمة من العولمة مؤكداً أن "جديد العولمة ليس سوى إعادة إنتاج لجوهر الرأسمالية المتوحشة..، وقد انطلقت غرائزها بعد زوال الحواجز الرادعة (الاتحاد السوفيتي)،.."[21].

النتائج والمناقشة:

نخلص مما سبق إلى أن الدراسات العربية المعاصرة لظاهرة العولمة والتعريفات المقترحة لها، رغم اختلاف قيمها الدلالية من مفكر لآخر، يمكن أن تتلخص في أربعة أسئلة رئيسية ومشروعة هي:

1. هل العولمة حركة موضوعية وحتمية لا خيار ممكنٌ لنا فيها؟ أم هي مجرد سياسات تتبعها دول أو منظمات ومن منطلق مصالحها الذاتية، وبالتالي يمكن تجنبها والعمل كما لو لم تكن موجودة، بل افتراض مقاومتها لزوماً للحفاظ على استقلالنا وحريتنا وصلاح سياساتنا أو فسادها النسبيين؟!

2. هل تعني الهيمنة العالمية؟ أو هل هي مرتبطة بهيمنة الدول الكبرى أو المتقدمة؟ أم هل هي ديناميكية جديدة تتيح الخروج من الهيمنة، وتقدم فرصاً أكبر لتحرر المجتمعات البشرية وتقدمها؟... أي هل هي ذات آثار إيجابية على الرغم مما يمكن أن يشوبها من سلبيات، أم هي سلب مطلق تتضمن كسر إرادتنا، واكتساح اقتصادياتنا وتفكيك مجتمعاتنا، ومحو ثقافاتنا؟!

3. هل تعني العولمة الأمركة الاقتصادية والثقافية؟! .. أم أن الانفتاح المتبادل للفعاليات الاقتصادية والثقافية والإعلامية دولياً، سيساعد وبالعكس، على تطور وتعميق التعددية الحضارية والثقافية والسياسية..؟!

4. هل لدى المجتمعات الضعيفة القدرة الكافية لمعالجة ومواجهة الضغوط التي تحدثها العولمة..؟ ما هي شروط بلورة إستراتيجية مجابهة أو معالجة فعالة وناجحة بديلة؟[22].

وهكذا فإن الخطاب العربي ما يزال – بغالبيته – يعكس مواقف من العولمة محاولاً تحليل الظاهرة وتحديد العوامل التاريخية والاقتصادية والسياسية والثقافية... وحتى الأيديولوجية التي أسهمت بوجودها وشكلت بنيتها وبالتالي محاولة فهم وتفسير تجلياتها أو مظاهرها المتناقضة أحياناً، سواء على الساحة المحلية عربياً أو على الساحة الدولية عالمياً. وعلى ضوء ذلك نقترح من جهتنا تعريفاً نظنه دلالياً، لظاهرة العولمة ونعتمده إجرائياً في بحثنا هذا. لكي نستنتج من خلاله واقع وأبعاد العولمة وآثارها على الساحة العربية، ثقافياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً.. أي قومياً بالكلية.

---

[19]انظر: عبد الله، إسماعيل صبري، "العرب والكوكبة" مقال أبحاث ندوة العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 361-386.

[20]عيد، عبد الرزاق، "ما هو جديد العولمة"، مجلة الهدف، بيروت، العدد11، آخر سنة 1998، ص 83.

[21]المرجع السابق، ص 83.

[22]انظر: غليون، برهان وأمين، سمير، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط2، 2000، ص 11-12، بتصرف

فالعولمة من وجهة نظرنا هي: محاولة نقل الفعاليات الإمبريالية النشطة اقتصادياً في الدول الأكثر تقدماً أو عصرية، وعلى مختلف الأصعدة والمجالات، من المستوى الخاص أو المحلي لمجتمعاتها إلى المستوى العام، أي تعميمه لكي يشمل العالم بأسره. وذلك بشتى الوسائل المتاحة وبما يناسب كل نوع من أنواع تلك الفعاليات.

وكلمة محاولة – التي نستخدمها – لا تعني برأينا التعمد في إجراء النقل ذلك ضرورة، لكنها لا تنفي مطلقاً الرغبة أو عدم الممانعة جزئياً في الإجراء. أي إنها إشارة إلى أن انتقال العولمة قد يكون فعلاً ذاتياً من قبل المتلقين والمصدرين والمروجين على حدٍ سواء، من جهة أولى. ومن قبل آليات وتجليات وعناصر العولمة نفسها، لما تحتويه من ميزات خاصة مرغوب بها أو مُهيّئة ومُعززة لذلك الانتقال، من جهةٍ ثانية. أما الفعاليات فهي لا شك اقتصادية أولاً، وسياسية مؤدلجة ثانياً، وثقافية نمطية ثالثاً، واجتماعية انتقائية رابعاً وحتى علمية وعسكرية وعملية... وغيرها، خامساً. وكذلك الوسائل فهي معلومات واتصالات وإعلام ودعاية وإشاعة وموضة... وكلها نمطية ومؤدلجة وترويجية أو تسويقية مناسبة.

والنقطة الأبرز هنا، ليس البحث أو السؤال عن العوامل والفعاليات والوسائل العولمية رغم أهمية تحديدها؛ بل السؤال الأهم هو: لماذا يتم نقل أو انتقال هذه الفعاليات؟! أي ما الغاية أو الهدف المرجو تحقيقه من تلك المحاولة؟ إنه بالتأكيد ليس كرمَ أخلاقٍ ولا نبلَ سجيةٍ من الناقلين (دولٌ وشركات)، يُمكّنُ المهمّشين عالمياً من المشاركة في خيرات العصر أو جني بعض ثمار الحضارية المادية الكثيرة، أي إنه ليس شعوراً بحالتهم ولا استجابةً لحاجاتهم. بل هو بالتأكيد تعبيرٌ عن اللغة الإمبريالية التجارية الصارمة، واستجابة مناسبة لمكونات معادلتها النمطية والصرفة بشكلها البسيط، لكن السائد غالباً، ألا وهو زيادة الربح وتخفيض الخسارة. ذلك الربح الذي يبدأ – على المستوى المادي – دوماً بالاقتصاد، لكن اليوم وبفضل استخدام نهج العولمة وبجهود رجالات الاقتصاد(أصحاب رؤوس الأموال) سينتهي به أيضاً، مسخراً كل مظاهر الفاعلية الإنسانية لخدمته. أي إن العولمة وباختصار، باتت وسيلة القوي اقتصادياً (مالياً) التي تضمن له شرعية استخدام كل شيء من أجل تمكينه من زيادة قوته؛ إنها محاولة لخلق المناخ – ليس المحلي فقط بل العالمي – الملائم الذي يضمن له ذلك.

لكن ومن باب مشروعية النقاش الفلسفي لبعض الاحتمالات الممكنة، نسأل هل يضمن الاقتصاديون (الأقوياء) أن استثمار العولمة سيكون من قِبَلهم فقط، ولصالحهم دوماً؟ أو هل العولمة فرصة اقتصادية بحتة، أم أنها يمكن أن تُستثمر من قِبل السياسيين والمفكرين والأدباء.. وحتى العمال، أي من قبل كافة الشعوب وبجميع طلائعها الإصلاحية والثورية على السواء؟ بعبارة أخرى: طالما أن العولمة هي وسيلة فما المانع من استخدامها من قبل الجميع (القوي والضعيف)؟!.

إن الفكر وقبله الواقع يؤكد إمكانية ذلك الاستثمار للعولمة، ولكن ذلك لا يتم حقيقة إلاَّ ضمن شروط مناسبة وضرورية. مناسبة لكل من القوي والضعيف كلّ طرفٍ على حدا، وضرورية لكي يضمن كلّ طرف تحصيل الفائدة الخاصة به؛ مع التأكيد على إمكانية التعارض في المصالح، بل حتمية حدوث ذلك التعارض. لكن ذلك لا يجعل التسوية أو التوفيق بين هذه المصالح مستحيلاً؛ بل هو ممكن جداً وضروري. وهذا ما سنحاول بيانه في مناقشة المحور التالي من بحثنا، وهو الوعي القومي العربي في ظل العولمة.

<u>مبادئ الوعي القومي العربي في ظل العولمة:</u>

ما نعنيه بمبادئ الوعي القومي هو تلك الأسس التي تستند إليها بنية القومية العربية والمشكلة للخصوصية الحضارية لذات الأمة، وجوانب تموضع هذه الذات تاريخياً وثقافياً وجغرافياً واقتصادياً وسياسياً.. وغيره. والتي تعني ضرورة المحافظة عليها وتعزيزها من خلال توفير مستلزمات الأمن القومي العربي بما يضمن وجوداً حقيقياً وفاعلاً حضارياً للأمة العربية. ليس فقط لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية والمفروضة على الأمة، بل ضمان استثمار الإمكانيات الكثيرة والقدرات المتنوعة للأمة العربية في سبيل بناء مستقبل أفضل بالمقاييس جميعها. مستقبل تنتقل فيه الذات القومية العربية من دور المنفعل إلى دور الفاعل، من مستوى التقليد والتبعية والتقوقع إلى دور الإبداع والسيادة والحرية والتنظيم.. البناء حضارياً.

وفق هذا المعنى للفعل القومي العربي أو الطموح بمستقبل عربي أفضل، الممكن مبدئياً والمتجسد تعبيرياً في مختلف أشكال الفعاليات الثقافية العربية الحرة، وأمام امتناع التحقق الواقعي للكيان القومي العربي الفاعل رغم توفر مشروعيته وضرورته، وأمام تحديات العولمة وإغراءاتها، يزداد الإلحاح عربياً –بمختلف المستويات– على ضرورة انتشار وترسيخ نوع مناسب من الوعي القومي العربي، يضمن – وبالحدود الدنيا – تحقيق المصالح العربية باليد العربية. أي وعي تصب فاعليته في مسار تكامل وتكاتف الفعاليات العربية كافة – الفردية منها والجماعة – من أجل إنجاح المشروع القومي العربي وإخراجه من أزمة الوجود والمصير، التي ما تزال تعصف به وتكاد تئده في مهده. رغم كونها مفتعلة وظرفية، وما ذلك إلاَّ لأنه ما يزال هش البنية ضعيف المقاومة، الذين يدّعون نصرته كثرةٌ كثيرة، لكن العاملون حقيقة من أجله قلة قليلة...!

ووفقاً للعلاقة المتبادلة تكاملياً بين التغيير والتعبير، نُرجح البدء في تشخيص البعد الثقافي لذلك الوعي. لأنه يقدّم مسألة الهوية الثقافية للأمة العربية كونها مشروعاً مستمراً وقيد الإنجاز تاريخياً لأنه يسهم مباشرة وعبر أُطر الصيرورة الاجتماعية، في تحديد السمات المميزة لشخصية الأمة العربية. فإن كانت الثقافة، وفق تحديد البعض "هي المُعبّر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي..."[23] فإنَّ شخصية الأمة تنعكس تكاملاً أو اختلالاً كما الشخصية الفردية من خلال التوافق بين السلوك العملي والقناعات الفكرية اتزاناً، وتنعكس شذوذاً بمجرد انعدام ذلك التوافق. أي إن شخصية الأمة أو أية جماعة "تتحدد بمدى توافق سلوكيتها مع شعاراتها ومبادئها. وتتكون من تفاعل نفسيتها العامة مع فكرها واللغة التي تعبّر عن هذا التفاعل. وما الحضارة والثقافة إلاّ نتاج لهذا التفاعل وهذا التعبير"[24]. لذلك فهذه الشخصية أيضاً غير منجزة، إنما هي مشروع قيد الانجاز.

وبالتالي تصبح الهوية الثقافية لأمة ما، المتكونة أصلاً من عنصرين هما الشخصية المميزة والثقافية المتميزة، مشهداً حضارياً فاعلاً عبر خصوصيات المكان والمكانة واللّحظة. وهي أبعاد ثلاثة تشغلها ذات تلك الأمة سواء في بناء كيانها الخاص أو عبر سلوكها التفاعلي مع غيرها من الأمم. وهذا ما ينعكس واقعاً عبر ثنائية الانكماش أو الانتشار أثناء التعامل مع الآخر، أقوى كان أم أضعف. فليس المقياس هنا مقدار قوة الآخر(الخصم أو النظير) بل المقياس هو قوة الذات وفاعليتها، أو بعبارة فلسفية مقدار كينونتها الحقّة...!

[23]الجابري، محمد عابد، (العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات)، مقالة في كتاب: العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1998.ص 298.

[24] الشهابي، إبراهيم يحيى، الشخصية العربية، دار الفتح، دمشق، 1981.ص 41.

لكن المنطق يفترض صورياً التلازم الطردي بين غنى مكونات الذات وفاعليتها وبالتالي مكانتها الحضارية. وبالإسقاط على الحالة العربية الراهنة نجد من الناحية النظرية على الأقل أن مكونات الفعل الحضاري العربي وإمكانياته متوفرة قومياً لا قطرياً. أي إن الغنى الذاتي للأمة العربية من مختلف النواحي– مادية كانت أم معنوية– محققٌ نظرياً لكنه غير منجز واقعياً، وبالتالي غير فاعل حقيقة. وتعطيل فاعليته ليس بفعل التدخل الخارجي فقط، بل بسبب القصور الذاتي، وهو الأساس برأينا.

ذلك أن الآخر مهما تكن قوته وسطوته لن يستطيع عرقلة فعل الذات ما لم تكن هذه الذات تمتلك استعداداً. أي إن الخارجي لا يمارس فعله السلبي في الداخل إلا وفق مشروطية ملائمة ظروف الداخل لتلك الممارسة. وهذا ليس جلداً للذات، إنما هو اعتراف بالتقصير وليس بالنقص أو الدونية. وإن كان هناك نقصٌ فعلاً فهو نقصٌ في الوعي الحقيقي لمصلحة الذات، وقصور ذلك الوعي عن مواجهة الآخر، وتقدير الظرف بما يناسب...! وهنا يحضر قول "لبرنارد ولويس" عمره أكثر من قرنٍ ونصف، يصف فيه الحالة العربية كما رآها بزمانه. إذ يقول في كتابه "الغرب والشرق الأوسط":

"... الوطن العربي أغنى المناطق في العالم ثروة ومصادر طاقة؛ ولكن الذي استخرجها هم الغربيون بخبرائهم ومعداتهم لتخدم حاجات الاختراعات الغربية الحديثة. ومن أهم ما يفتخر به العربي هو الجيش، والجيش يستعمل السلاح الغربي ويتبنى العقيدة القتالية الغربية ويرتدي الثياب العسكرية على الطراز الغربي؛ ويسير على ألحان الموسيقى الغربية. وأفكار العربي وأيديولوجياته – حتى الأيديولوجيات الثورية – جاءت إليه من الغرب. ومعلوماته عن تاريخه وتاريخ حضارته جاءته عن طريق الباحثين الغربيين. وكتّابه ومهندسوه وفنّيوه حتى خيّاطوه يشهدون بعملهم على استمرار سيطرة المدنية الغربية. لباس العربي ووسائل رفاهه هي رمز لتعلقه بحضارة أجنبية. ظلت الحضارة الأجنبية مسيطرة عليهم يكرهونها ولكنهم يعجبون بها، يقلدونها ولكنهم لا يستطيعون المشاركة فيها. إنها تجربة مذلة أصابت كرامتهم بجرح غائرٍ عميق. ولقد خلق ذلك كله في أرض العرب مشكلات حقيقية [جديرة] باقتلاعهم من قواعدهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وبإثارة مركب النقص فيهم"[25].

ماذا يعني الوعي العربي اليوم أكثر من توليد الإحساس بضرورة إزالة مركب النقص ذاك، نظرياً ثم عملياً؟! وأكثر من وعي ضرورة محاولة التجاوز الفعلي (الحل الحقيقي) للمشكلات العاصفة بالأمة، وليس مجرد تسويفها؟! إن الوعي القومي اليوم وفي ظل العولمة بالذات، مطالبٌ بالتنظير الموضوعي للتحديات الداخلية والخارجية المعرقلة لفاعلية الذات العربية قومياً، ومطالبٌ أيضاً بالتشخيص العلمي لحجم ظاهرة العولمة وتحديد أبعادها الحقيقية السلبية منها والإيجابية. من أجل توفير الشرط اللازم وغير الكافي لانطلاق تلك الفاعلية باتجاه استثمار موفقٍ للإيجابيات وتجاوز آمن للسلبيات عبر استخدامٍ رشيدٍ للقدرات.

إن ذلك الوعي لا يعني مجرد القبول أو الرفض ولا يتوقف عندهما، بل هو الفهم الصحيح والتدبير الأمثل أو الفعل الرصين قولاً والمشرّف نتيجةً أو عملاً. فالنهضة الحقيقية – برأينا نحن – هي الاعتبار من تجارب الماضي والاستفادة القصوى من معطيات الحاضر في سبيل الاستجابة الأفضل لمتطلبات المستقبل، وبذلك فقط وعبره سوف نحقق تقدماً ونصنع حضارة، وبغير ذلك ستبقى مواقفنا – كما عهدناها منذ حوالي القرنين وما تزال – إمّا قفزٌ فوق الواقع فهروبٌ لا عقلاني وحالم إلى الأمام أو رومانسيٌ أو ربما خرافي إلى الوراء، وإما مراوحة سلبية في المكان

[25] المرجع السابق، ص 39–40.

فاجترار لا جدوى منه، سوى الصخب الذي يصمُ الآذان والحراك الارتباكي الذي يعمي العيون بما يثيره من رماد، الأمر الذي يجهد الذات ويجعلها تغفو جاثية أمام الآخر، لكن هيهات أن تتركها الكوابيس...!

الاستنتاجات والتوصيات:

وفي سبيل تفنيد ما سبق عرضه وبيان فحواه وعلى ضوء تأثر الوعي القومي العربي بظاهرة العولمة، وبناء وعلى معطيات الواقع الراهن عربياً نؤكد مايلي:

1. أن هذا التأثر هو واقعيٌّ الآن ولا مجال لإنكاره، ومظاهره بادية في مختلف المجالات والأنشطة التي نقوم بها كأفراد وتخصنا كجماعات وحتى دولٍ أو أمة.

2. أن هذا التأثر لم يكن سلبياً دوماً، بل شهد دفعاً إيجابياً لابأس به أحياناً كثيرةٍ. فكانت خير ثماره عربياً في مجال استخدام المعلومات والاتصالات والإعلام لخدمة الحق العربي وطنياً وقومياً، وكانت أخطر سيئاته في هذه المجالات أيضاً.

3. وتفسيراً لما قد يظن أنه تناقض في التحديد السابق نؤكد أن سلبية التأثر أو إيجابيته توقفت عربياً على:

أ- آلية الاستخدام ووعي المستخدم وأغراضه.

ب- تقدير السلبية أو الإيجابية يعود أصلاً للموقف الفكري تجاه العولمة، والبعد أو القرب من العصرنة إيديولوجياً لا موضوعياً. وهذا ما جعل التأثير متفاوت النتائج بين الأفراد وكذلك بين الدول العربية، وذلك من خلال سياسات متناقضة تجاه وسائل العولمة واستخدامها.

4. أن المشاركة في إنتاج الفاعلية الحضارية للعولمة عربياً، يكاد يكون معدوماً. فموقعنا كدول مجزئة وطاقات مبعثرة، هو موقع الطرف المنفعل وبالمعنى السلبي، إذ لا تتعدى مساهمتنا حدود المستهلك المسرف والسوق المتعطش لكل جديد وليس لكل مفيد، والمقلد من أجل التقليد... ربما.

5. أنّ تلك المشاركة السلبية – ونسميها مشاركة تجاوزاً – التي تبدو غالباً بصورة تبعية سالبة للإدارة، أو ارتهان؛ تعيدنا إلى مقولة الداخل والخارج أو الأنا والآخر وآلية التأثير وتؤكد أن ضعف الداخل الشديد وخواء مقاومته أو انعدامها أحياناً، مع توفر أسباب قوة الخارج (الآخر) هو الأساس في ممارسات ذلك الخارج وتجاوزاته وكذلك في ترسيخ سلبية الداخل أيضاً، واستكانته خوفاً من السياط أو طمعاً بالفتات.

تلك هي بالذات الحالة المرضِيّة عربياً في عصر العولمة، الواجب تجاوزها من خلال توفير وعي قومي عربي بنّاء وفعل عربي مشترك وحقيقي. فواقعنا ليس قدراً نافذاً ولا مصيراً حتمياً، إنما هو اختيار سلبي وتعطيل ذاتي واستسلام حقيقي، ناتج عن انسحاب من مواجهة مفروضة إلى تبعية مرفوضة. إن الوعي القومي الحقيقي عربياً وفي ظل العولمة، يعني لنا ضرورة تصحيح الرؤية وتجديد الثقة وتحفيز الذات للفاعلية الإيجابية، من خلال إعادة تقييم حقيقي لمعطيات الحاضر وإمكانيات الفعل المتاحة عربياً والتي يجب أن تسخر لمتطلبات المستقبل العربي الأفضل. ولكن وفق خطط علمية موضوعية، وليس مجرد تصورٍ طوباويٍّ أو توَهُّمٍ سطحيٍّ ساذجٍ.

فإن كانت معطيات الحاضر الفاعلة حقيقية في ظل العولمة هي – وبالترتيب حسب الأهمية – الاقتصاد ثم السياسة فالأمن فالثقافة وتبعاتها... وكل ذلك قائم على استثمار العلم والتقنية المعاصرة، من جهة أولى. وتشكل بترابطها السببي منظومة متكاملة يؤدي ازدهار بعضها إلى ازدهار الآخر والعكس صحيح..، ومن جهة ثانية. هذه

المعطيات عربياً متوفرة، لكنها غير فاعلة، أي إنها معطلة ولعدة أسباب. من أبرزها قصور الوعي القومي العربي سواء على مستوى مواجهة التحديات الملحة، وأبرزها العولمة بتجلياتها المتنوعة. أو حتى على مستوى تقدير الإمكانيات العربية أو تفعيلها إيجابياً في سبيل تحقيق نوع من الاستثمار القومي الضامن لتنمية تكاملية حقيقية. تسهم فعلاً في تجاوز الهامشية الحضارية الراهنة للأمة العربية نحو مساهمة أو مشاركة فعلية مناسبة في الحضارة العصرية، على غرار تجارب عالمية ليست أوروبية ولا غربية بالضرورة. مساهمات لمجتمعات شرقية كان لها يوماً من الأيام واقعٌ يشبه وربما أعقد من واقعنا وقد تجاوزته بمهارة، فأصبح لها اليوم راهناً حضارياً ومساهمة لا يمكن أن تقارن بمساهمتنا؛ كالتجربة اليابانية والصينية والهندية والكورية... وغيرها.

تلك التجارب التي تؤكد لنا وبما لا يدع مجالاً لأدنى شكٍ، في أن تحقيق الوجود الأفضل حضارياً وعلى المستوى العالمي، مرهونٌ اليوم وأكثر من أي وقت مضى، بالعلم والعمل فقط، لا بالحلم والأمل أو التمني..!

وكلاهما – العلم والعمل – اليوم شرط لازم وضروري للآخر، فلن تعمل عملاً حقيقياً ومفيداً يضمن لك وجوداً مساهماً حضارياً إلاّ من خلال العلم العصري وتطبيقاته المتنوعة، وبالأخص التقنية منها. وكذلك لن تمتلك العلم النافع والحقيقي عصرياً، إلاّ بالعمل الجاد والإنفاق المسؤول والسخي والجهد المتفاني في سبيل ذلك.. فلا أحد يمنحك جهده مجاناً، فما بالك في إبداعه..!

ولتحقيق ذلك، فإن العرب اليوم مطالبون – وربما أكثر من أي وقت مضى – بالعمل على إرساء دعائم وحدة حقيقية وليس شعاراً أو على الأقل اتحاد اقتصادي وسياسي برلماني وأمني وثقافي حقيقي فاعل دولياً. وذلك انطلاقاً من وعي قومي، وحس وطني بالمسؤولية، يرتفع لدرجة الإدراك اليقيني بأن "التكامل العربي هو الطريق السليم لرفع تحدي العولمة وكسب رهان التنمية والتحرر، وهو السبيل الأضمن للحفاظ على الحضور العربي المتميّز والفاعل، والشرط المسبق والضروري للانخراط في العولمة، ونحن قادرون على التخفيض من مخاطرها وتوظيف منافعها. فإما أن نعمل معاً، وإما أن نزول الواحد تلو الآخر، تحت وطأة العولمة أو... ما دونها"[26]. لأن البلدان والدول العربية بأشكالها القطرية السائدة الآن، إن استمرت في دخول عصر العولمة فرادى، فسيبقى مصيرها التهميش والارتهان ولا فرص حقيقية لها في المشاركة. بل هناك خطر حقيقي على استقلالها إن لم يكن وجودها. وذلك ببساطة لأن العولمة، وباعتراف غالبية المهتمين هي: "خطر على الضعيف وفرصة للقوي"[27]. ولدينا فرصة حقيقية لا تزال ممكنة، لأن نكون أقوياء حقيقة لا أمنية. وهو أمر لا يحتاج منّا سوى تعميق وتنظيم وتوجيه ما يجمعنا في هذه الأمة، وبالأخص المصالح المشتركة، وجهته الصحيحة، من جهة. ومحاصرة أو ترك ما يفرقنا مهما كان، لأنه بالنهاية هو من العراقيل الواجب إزالتها.

مجمل القول إن المشروع القومي العربي اليوم وفي ظل العولمة وتحديات القرن الواحد والعشرين، يحتاج إلى تعديلات إجرائية وربما ضرورية على صعيد المرتكزات، وإلى إصلاحٍ في الرؤى على صعيد المبادئ، وتوكيلٍ لفعالياتٍ قومية ذات ثقل اجتماعي واقتصادي ومدني عربياً على صعيد الانجاز. حيث إن هذا المشروع بصيغته الكلاسيكية التي شهدتها الساحة الفكرية العربية طيلة القرن العشرين، وكانت الوحدة العربية هدفها الرئيسي، مستندة إلى فكرة القومية العربية وعوامل تكوينها المتمثلة بالمشيئة والتاريخ والجغرافية واللغة... وغيرها. والمنعكسة أصلاً عن النظريات القومية

[26] بقرادوني، كريم، من تعليق له على مقالة محمد الأطرش عنوانها (العرب والعولمة: ما العمل؟)، كتاب: ندوة العرب والعولمة، ذكر سابقاً، ص 485.

[27] عوض، محمود، من تعليق له على مقالة محمد الأطرش عنوانها (العرب والعولمة: ما العمل؟)، كتاب: ندوة العرب والعولمة، ذكر سابقاً، ص 476.

الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر... والتي عملت أحزاب وأنظمة عربية على تحقيقه أو منع تحقيقه، كلٌّ من موقعه؛ إن تلك الصيغة بكل تبعاتها لم تعد هي الصيغة المناسبة ولا الممكنة اليوم. فالزمن تغيّر والتحديات تضاعفت فقد أضيف لما كان ولم يحل الكثير من التحديات الداخلية والخارجية العاصفة والملحة بشدة. فنحن بمشروع الوحدة العربية الكلاسيكي، قومياً أفلسنا وربما أصبحنا مدينين... أي أصبحنا ما دون مرتبة الصفر..!

ومهما يكن فإن ذلك يجب ألاّ يدعو لليأس، لأن رفض حتمية الخضوع السلبي للعولمة أمر بديهي يقرّه كلّ عربي. لكن وأمام تحدي كونها أصبحت واقعاً قائماً لا يمكن تجاهل تجلياته، فإن محاولة الظفر بما تبشر به من وعود بالتقانة، وانتشار المعلومات، وسرعة الاتصالات، ووفرة رفاهٍ وكفاءات اقتصادية،... وغيرها. وقبل كل ذلك حرية وحقوق إنسان وديمقراطية ومجتمع مدني؛ تبقى محاولة مشروعة لا بل ضرورية جداً، يفترض ألاّ تغفل عنها أية بصيرة نافذة أو إرادة قومية حرة. لذلك وأمام هذه الضرورة علينا أن نشمر عن ساعد الجد ونعمل متعاونين سوية للبحث عن السبل الكفيلة بتحقيق "**تنميتنا وتقدمنا في عالم مفتوح اقتصادياً ومالياً، دون خسارة هويتنا أو الاستمرار في شباك التبعية**"[28] ومتاهات التجزئة. وذلك من خلال التركيز على ضرورة توطيد أسس تنمية داخلية راسخة البنيان عربياً، تنمية مستقلة تضمن المشاركة الفعالة في التبادل الدولي بمجالاته المختلفة "وهذا يحدث من خلال تكامل عربي، وحتى يحدث يجب النهوض بالمنظومتين الأساسيتين وهما المنظومة الثقافية الذاتية والتنظيم المجتمعي المتوافق معها والقادر على التعامل الإيجابي مع المنظومة الثالثة التي هي موضوع الكوكبة وهي الاقتصادية"[29].

إذاً ما يتعين علينا اليوم فعله عربياً، هو تنفيذ مشروع قومي عربي متكامل وليس مجرد وعي أهميته أو بيان لزوميته، فالمطلوب تحقيق أسباب القوة العربية وتعزيزها بجميع جوانبها لتجاوز التحديات الراهنة ومعالجة الإشكاليات الملحة. ولكن السؤال المشروع هو: من سيقوم بتنفيذ هذا المشروع؟ وكيف سيكون شكله؟! أو بعبارة أخرى هل الشعب العربي والمؤسسات المدنية والأحزاب القومية الحرة والأنظمة الديمقراطية التقدمية..، هي من ستتعهد ذلك المشروع وتشرف على تنفيذه، انطلاقاً من مصالحها هي وحدها وبالذات؟! أم أنها ستعهد به لغيرها ممن خَبُرت فعلهم ودفعت فواتير تجاوزاتهم الباهظة القيمة، مرغمة؟! .. والجواب متروك لكم الآن وللزمن مستقبلاً؛ لأن مهمة الفلسفة تتمثل في صياغة السؤال الصحيح وليس بالإجابة عنه.

المراجع:

أ. باللغة العربية:

1. حنفي، حسن وَالعظم، صادق، *ما العولمة*؟ دار الفكر، دمشق، ط2، 2000.

[28] المقدسي، سمير، من تعقيب على مقالة: إسماعيل صبري عبد الله وعنوانها (العرب والكوكبة)، من كتاب العرب والعولمة، مرجع سبق ذكره، ص 392.

[29] الإمام، محمد محمود، من تعليق له على مقالة: إسماعيل صبري عبد الله وعنوانها (العرب والكوكبة)، من كتاب ندوة العرب والعولمة، مرجع سبق ذكره، ص 410.

2. السيد جاسم، عزيز، *نحو تحريفية أوسع للفكر القومي العربي*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005.
3. الشهابي، إبراهيم يحيى، *الشخصية العربية*، دار الفتح، دمشق، 1981.
4. *العرب والعولمة*، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير أسامة أمين الخولي، بيروت، 1998.
5. غليون، برهان وَأمين، سمير، *ثقافة العولمة وعولمة الثقافة*، دار الفكر، دمشق، ط2، 2000.
6. هانس، بيتر مارتين وَهارولد شومان، *فخ العولمة*، ت: رمزي زكي، عالم المعرفة، الكويت، تشرين2، 1998.
7. *مجلة الطريق*، العدد الأول، ك2، شباط، بيروت، 2000.
8. *مجلة عالم الفكر*، المجلس الوطني للثقافة والفنون، المجلد 28، العدد 2، أكتوبر – ديسمبر، 1999.
9. مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون، المجلد 29، العدد 3، يناير، مارس، 2001.
10. *مجلة النهج*، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، العدد 22، ربيع 2000.
11. *مجلة الهدف*، بيروت، العدد السنوي، آخر سنة 1998.

ب. باللغة الإنكليزية:

1. Francis Fukuyama, the End of History and the Last Man, The Free Press, New York, 1992.
2. Karl Kautsky, "Ultra-imperialism", New Left Review, London, No. 59, 1970.
3. Robert Rich, the work of Nations, Vintage Books, New York, 1992.